

المقالة الصحفية

والمقالة الأدبية

قبل أن أميز المقالة الصحفية من المقالة الأدبية ، لابد من التحدث عن قوام المقالة بوجه عام ، وذكر سماتها المتفق عليها ، والعلامات التي يهتدى بها ، وإن كان تحديد صفات المقالة وبيان مميزاتها ليس من الأمور السهلة .

فما هي المقالة ؟ المقالة من غير شك لون من ألوان الأدب وضرب من ضروب الإنشاء . ولكنها ربما كانت من أشد ألوان الأدب استعصاء على التعريف ، وتأياً على التحديد ، ومن أقوى أسباب ذلك أنه ليس هناك من يستطيع أن يزعم أنه قد أدرك كنهها ، وعرف طبيعتها معرفة بحكمة دقيقة . فليس للمقالة صورة قد توافقت عليها الآراء وانعقد عليها الإجماع ، فقد تكتب نثراً وقد تنظم شعراً كما يرى الناقد «ستلاند» . وقد تكون طويلة فضفاضة ، وقد تكون قصيرة موجزة ، وقد تكون فكهة مرحة ، وقد تكون جادة وقوراً ، وقد تتناول موضوعاً مهماً ، وقد تدور حول موضوع من الموضوعات العادية المألوفة ، وقد يتأنق الكاتب في كتابتها ويتخير لها أبلغ العبارات ، وقد يتحرى في كتابتها اليسر والسهولة ويرسل نفسه فيها على سجيتهما .

ولكن المقالة بالرغم من هذا الغموض الذي يحيط بطبيعتها ، تفرض على كاتبها مطالب لا بد من استيفائها وإلا انتفت عنها صفة المقالة وأصبحت لونا آخر من ألوان الكتابة ، ولذلك قد نستطيع أن نميز المقالة من غيرها ، وإن كنا نعجز عن تقديم تعريف جامع مانع لها . وعند تناول موضوع المقالة يحسن أن نتناول

سمتها الملحوظة وصفاتها المميزة .

والمعروف عند نقاد الأدب الغربي ، أن أول ظهور للمقالة بالصورة التي عرفت بها كان في سنة ١٥٨٠ ميلادية حينما ظهرت مجموعة مقالات الكاتب الفرنسي الحكيم « مونتين » . ويروى عنه أنه رأى في مدينة « بارلى دك » بفرنسا صورة رسمها لنفسه « رينيه » ملك صقلية فسأل مونتين نفسه قائلاً : لماذا لا يباح لكل إنسان أن يصور نفسه بالقلم على هذا النمط كما صور ملك صقلية نفسه بالألوان والخطوط ؟ وقد استطاع مونتين أن يرينا في مقالاته جوانب شتى من شخصيته وأسلوب حياته ، حتى قيل عنه « إنه أول من قال بوصفه مؤلفاً ما شعر به بوصفه إنساناً » .

وأول ميزة للمقالة هي أنها تعبير عن وجهة النظر الشخصية . وقد تطورت كتابة المقالة منذ عهد « مونتين » . ولكنها مع ذلك لا تزال محتفظة بأبرز مميزاتنا وهي تناول الموضوعات من وجهة النظر الشخصية . وقد أصبحت هذه العلاقة الأكدية بين الكاتب والمقال الذي يكتبه هي السمة الدالة والعلاقة التي تميزها من سائر ضروب الكتابة الثرية .

وتمتاز المقالة في العصر الحاضر بالإيجاز ، ولكنها لم تكن كذلك في مختلف مراحل تقدمها ، فقد جاء وقت كانت المقالة تستغرق عشرات الصفحات ، وقد كان « ماكولى » و « كارلايل » من أقدر كتاب المقالة في الأدب الإنجليزي خلال القرن التاسع عشر . ولكن مقالاتها كانت طويلة ضافية ، أقرب إلى أن تكون بحثاً شاملاً مع احتفاظها بالمميزات الأصيلة للمقالة . والمقالة بطبيعتها لا تحاول - قصرت أو طولت - استيفاء الحقائق جميعها أو حشد المعلومات الغزيرة ، وإنما يختار كاتب المقال جوانب من الموضوع الذي يطرقة ، ويعرضها للبحث والنظر ، ويسلط عليها أضواء فكره ، ويلونها بلون شخصيته . وهو في

هذا العرض يكشف عن مدى قدرته الفنية ، لأن عليه أن يتجرى إظهار النواحي التي تثير الاهتمام بموضوعه ويغفل التفاصيل المملة ، ولا يستلزم هذا البراعة وحسن التأنى في اختيار الموضوعات فحسب ، بل يستلزم كذلك القدرة على انتقاء المواد المناسبة ، وإنماء الفكرة ، وتحديد الهدف ، ولابد من أن يرزق كاتب المقالة المجيد إجادة الاستهلال وبراعة المقطع .

والغاية الأساسية للمقالة هي الإمتاع . فإذا انحرفت المقالة عن هذا الهدف الرئيسي ، أصبحت غايتها إعطاء دروس في الأخلاق ، أو عظات أدبية ، أو رسم صورة قلمية أو سرد قصة عاطفية ، أو أى لون آخر من ألوان الأدب والمقالة بطبيعتها تقدم لك الكاتب كما تقدم لك الموضوع الذى يكتبه بروح من شعره وفكره والحالة النفسية المستولية عليه .

واستجابة الكاتب للحالة النفسية الغالبة عليه وصياغتها ، قد يكون باعثاً تيرمه بعادة من العادات ، أو كراهيته لتقليد من التقاليد ، أو ارتياحه لشذو طائر مغرد ، أو إعجاب بصفة تستوجب الإعجاب ، أو تأثره بوعكة طارئة ، أو تسجيل خاطرة عابرة . فالحالة التي تحدثها أمثال هذه الأمور هي موضوع المقالة ولب لبابها .

وما دامت المقالة تتناول موضوعاً يعبر عن عقل الإنسان وشخصيته ، فلا بد أن تكون حرة طليقة غير خاضعة لدعوة من الدعوات ، أو محبذة لمبدأ من المبادئ ، أو مسخرة من أجل عقيدة من العقائد ، أو مذهب من المذاهب . ولكي تتوفر للمقالة هذه الصفات ، وتتحدى العقبات القائمة في طريقها ، والمغريات التي قد تميل بها عن هدفها الأصيل وهو المتعة وحسن التعبير عن حالة الكاتب وإنماء فكرته ، لابد من إجادة تصميم المقالة ومراعاة الانسجام بين الفكرة وأسلوب الأداء : والمقالة في العادة تقوم على فكرة رئيسية ، وعلى

الكاتب أن يختار اللفظ الملائم الذي لا يبعده عن الهدف المقصود . فالوحدة والتناسك والتدرج في الانتقال من خاطرة إلى خاطرة أخرى من الخواطر التي تتجمع حول موضوع المقال ، من ألزم ما يلزم في أدب المقالة . والمقالة قبل كل شيء عمل فني يستدعي إتقانه والتبريز فيه اقتران المهوبة بالممارسة والتجربة ، فتلتقى حينئذ في كاتب المقال الصفات العقلية بالمزايا الشخصية لأنها ، أي المقالة ، تعبير عن وجهة نظر خاصة .

وهناك تجاوب بين التطورات التي حدثت في كتابة المقالة والأحوال التي أحاطت بكتابتها . فهي ، مثل سائر فروع الأدب ، تتأثر بالبيئة وتعمل على أن تلائم بين طبيعة فنها وبين التيارات الفكرية ، والاتجاهات النفسية ، والأحوال الغالبة . وربما كانت الصحافة أقوى المؤثرات في كتابة المقالة الحديثة . فالصحافة تتحرى خدمة عدد ضخم من القراء مختلفي المشارب والأذواق ومتفاوتي القدرة على الفهم والتقدير . ولما كان الكاتب يكتب المقال ليمتع القارئ . لذلك أصبح لزاماً عليه أن يراعى أحوال القراء الاجتماعية ومدى ما يملكون من الوقت . فمن القراء من يحاولون قراءة المقال وهم في إحدى مركبات الترام أو السكة الحديدية في طريقهم إلى مقار أعمالهم التي تستأثربوقتهم وجهدهم . ومنهم من يعتمد إلى قراءة المقال بعد عودته من عمله متعباً . هذا فضلاً عن تفاوت المستويات الثقافية ومعايير القيم والتقدير .

والمقالة في الأدب العربي ليست من فنون الأدب المجهولة . فكانت قديماً تعرف باسم الرسالة . وليس المقصود الرسائل الديوانية أو الرسائل التي تبادل بين الكتاب ، وإنما المقصود الرسالة التي كانت تدور حول موضوع يختاره الكاتب ، مثل رسائل الجاحظ وابن المقفع وابن شهيد وغيرهم من كتاب العرب . ولكن المقالة في الأدب العربي الحديث مختلفة بطبيعة الحال عما كان

يعرف قديماً بالرسالة . فقد تأثر كتاب المقالة الحديثة من غير شك بالاتجاهات السائدة في الآداب الغربية . وفي الحق أن تاريخ المقالة العربية الحديثة متصل اتصالاً وثيقاً بتاريخ الصحافة في الشرق الأوسط . ومعنى ذلك أنه يرجع إلى عهد غزو نابليون بونابارت للشرق ووجود المطابع الحديثة وإنشاء الصحف . وهذه العلاقة الأكيدة بين تاريخ الصحافة في الشرق الأوسط وكتابة المقالة ، جعل ظهور المقالة الأدبية مقترناً ومعاصراً لظهور المقالة الصحفية . وقد ظلت الجرائد فترة طويلة محتفظة بطريقة المقال الافتتاحي . وكان يدور في الغالب حول الموقف السياسي وما يعرض فيه من الأحوال والتقلبات والإصلاح الاجتماعي بوجه عام ، ومحاولته إيجاد وعي قومي . وحينما تألفت في مصر الأحزاب السياسية ، رأى زعماء الأحزاب أن يكون لكل حزب جريدة تعبر عن وجهة نظره وتؤيد مبادئه . وكان يراعى في كتابة المقال الافتتاحي المبادئ الأساسية التي تألف من أجلها الحزب . وقد ظهر المقال الأدبي إلى جانب المقال الصحفي . فالمقال الصحفي يتناول المشكلات القائمة والقضايا العارضة من الناحية السياسية ، والمقال الأدبي يعرض لمشكلات الأدب والفن والتاريخ والاجتماع . وبضرورة الحال كانت المقالة الأدبية أقرب إلى طبيعة المقالة وفنها الأصيل من المقالة الصحفية . وقد وجد بين كتابنا من استطاع الإجابة في النوعين مثل الأستاذ عباس محمود العقاد ، فقد اشتهر ، في مقالاته السياسية ، بحملاته الشعواء على خصوم الوفد الذي كان يدافع عن سياسته ويرر خططه . والدكتور حسين هيكل امتازت مقالاته الصحفية بالفقه القانوني والتأثر بالمذاهب السياسية والاجتماعية الحديثة ، والدكتور طه حسين كانت مقالاته الصحفية تظهر فيها ذخائر اطلاعه على الأدب العربي والتاريخ الاسلامي . واشتهر بعض الكتاب بإجادة المقالة الصحفية دون أن تكون لهم مشاركة ماثورة في كتابة

المقالة الأدبية ، أذكر من هؤلاء الكاتب الصحفي القدير الأستاذ عبد القادر حمزة ، وقد كان في مقالاته الصحفية ، من أقدر الكتاب على الدفاع عن وجهة نظر الحزب الذي يدين له بالولاء وإخراجه من الأزمات التي تعرض له ، والأستاذ أحمد حافظ عوض ، وكان يمزج مقالاته الصحفية بالفكاهة الطلية والسخرية اللاذعة ، والدكتور محمود عزمي ، وكانت تبدو من خلال مقالاته الصحفية ثقافته الاقتصادية واطلاعه على تيارات السياسة الغربية . ومن أقدر كتاب المقالة الأدبية الحاصلة الأستاذ ميخائيل نعيمة ، والأستاذ جبران خليل جبران ، والآنسة مي .

ولا بد من توفر شرط مهم في كاتب المقالة الصحفية وكاتب المقالة الأدبية على السواء ، وهو أن يعرف الكاتب كيف يكتب ، وأن يكون غزير العلم ، واسع الاطلاع ، متنوع الثقافة ، مع توقد القرينة ، وناقد البصيرة ، ودقة الملاحظة ، ورهافة الذوق ، حتى يعرف كيف يجلب القارئ ويستويه دون أن يركب الشطط ويعتسف الطريق . وكلما كان الكاتب موفور الحظ من الثقافة الأدبية جاءت مقالاته محكمة النسخ شائقة العرض قوية التفكير متماسكة المنطق . والمقالة الصحفية أو الأدبية بمجلاة للدقائق الأحاسيس وسرى الخواطر ، ويمكن أن تكون مرآة جيدة الصقل تعكس صورة الكاتب وظلال العصر الذي يعيش فيه والبيئة الاجتماعية والسياسية التي تحتويه .